وقف مركز مكة العالمي للهدى القرآني
هدى للناس
جمعية القلم للدراسات والأبحاث
مؤتمر
هدايات القرآن في بناء الإنسان

عنوان البحث:

بناء الإنسان: مفهومه، أركانه، مجالاته، في ضوء هدايات القرآن (سورة الحجرات أنموذجاً)

اسم الباحث/ـة

د/ عبد الله حامد سمبو

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الْمنَّان، خلق الإنسان علَّمه البيان، وكرَّمه بأن أرسل له الرسل وأنزل من أجله الكتب، وجعل له السمع والبصر والفؤاد ليدلُّوه عليه، وليكونوا مصدراً من مصادر سعادته في هذه الحياة الدنيا، وسبب فوزه ومنجاته في الحياة الأخرى. والصَّلاة والسَّلام على خير من اعتنى ببناء الإنسان؛ فبلَّغ الرسالة وأدَّى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حقَّ جهاده حتى أتاه اليقين؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين ساروا على نهجه ولم يألوا جهداً في اقتفاء أثره، وسلَّم تسليماً كثيراً شاملاً كلَّ من سار على منواله. أما بعد:

فقد اشتمل القرآن الكريم على أصول العلوم التي تكفل للنَّاس صلاح دينهم ودنياهم، إلاَّ أنَّ بُعد المسلمين عن تأمُّل كتاب ربِّهم، وانبهارهم بحضارات الشَّرق والغرب؛ قد أوقع في نفوس بعضهم توهُّم تأخُّر الحضارة الإسلامية عن قواعد بناء الإنسان، البناء الذي لا تستقيم حياة الأفراد والمجتمعات دون تحقيقه. ومن هذا المنطلق فقد جاء هذا البحث ليثبت سبق الحضارة الإسلامية (من خلال هدايات القرآن) إلى ترسيم تلك القواعد، والعمل على الرُّقيّ بالمستوى المعيشيّ للأفراد والمجتمعات، وسَمَّيته:"**بناء الإنسان: مفهومه، أركانه، مجالاته، في ضوء هدايات القرآن (سورة الحجرات أنموذجاً)** ".

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

تكمن أهمية الموضوع وأسباب اختياره فيما يلي:

١. أهمية الرُّجوع إلى القرآن الكريم في الكشف عن حلّ كل مشكلةٍ.

٢. وجوب إزالة الوهم الواقع في نفوس بعض المسلمين وغيرهم باعتقادهم خلوّ القرآن الكريم من أصول العلوم التي يقوم عليها بناء الإنسان وتشييد الحضارات.

٣. أهمية إظهار شمولية الشَّريعة الإسلامية، وعنايتها بما يقيم الدِّين والدُّنيا.

٤. إبراز مدى صلاحيَّة نصوص القرآن الكريم لحلِّ مشكلات العالم في كلِّ زمانٍ ومكان

مشكلة البحث وأسئلته:

ترتبط بموضوع البحث أسئلةٌ تتضمَّن في طياتِها ما يبرز مشكلته، وهي كالتالي:

١. ما مفهوم بناء الإنسان باعتباره مصطلحاً مُرَكَّباً؟

٢. هل يصحُّ ما تُرْمَى به الحضارة الإسلامية من كونِها بعيدةً عن تحقيق متطلبَّات الحضارات في الماضي والحاضر والمستقبل؟

٣. هل سبق الإسلامُ الحضاراتِ الأخرى إلى رسم قواعد بناء الإنسان والحضارات؟

٤. ما الأدلة القرآنية (من خلال سورة الحجرات) التي تثبت تحقيقه لتلك القواعد؟

أهداف البحث:

نسعى من خلال هذا البحث إلى تحقيق الأهداف التالية:

١. التعرُّف على مفهوم بناء الإنسان باعتباره مصطلحاً مُرَكَّباً.

٢. تصحيح الاعتقاد ببعد الحضارة الإسلامية عن تحقيق متطلبَّات البناء الإنسانِيّ والبناء الحضاريّ.

٣. بيان سبق الإسلام إلى رسم قواعد بناء الإنسان والحضارات.

٤. إظهار الأدلة القرآنية (من خلال سورة الحجرات) المشتملة على تلك القواعد.

حدود البحث:

تتمثل حدود البحث في بيان مجالات بناء الإنسان في ضوء هدايات القرآن الواردة في سورة الحجرات، دون غيرها من سور القرآن الكريم.

الدراسات السابقة:

لم أقف على من كتب فيما يتعلَّق ببيان مجالات بناء الإنسان في ضوء هدايات القرآن الواردة في سورة الحجرات، ولكن وقفت على ما له صلةٌ بذلك، وهو كالتالي:

١-**بناء الإنسان والمجتمع**، للباحث: أ.د. فاروق حمادة، الناشر: دار القلم – دمشق، ط١، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م.

٢-**فقه بناء الإنسان في القرآن**، للباحث: د. كفاح أبو هنُّود، الناشر: عصير الكتب للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٢٠م.

٣-**بناء الإنسان وفق رؤية إسلامية**، للباحث: خير الدين شرقي، مجلة العلوم الإسلامية والحضارة – المجلد (٨)، العدد (١)، السنة (٢٠٢٣م).

٤-**بناء الإنسان وإعداد الشخصية المسلمة (إشراق همة وفجر أمة – قراءة جديدة في جزء عمّ)**، للباحث: أ.د. سليمان الدقور.

ولم يُخصِّص واحدٌ من هؤلاء الباحثين الأربعة في بحثه ما يتعلَّق ببيان مفهوم بناء الإنسان وأركانه في ضوء هدايات القرآن، واستخراج مجالات بناء الإنسان الواردة في سورة الحجرات، وهذا ما تفرَّد به بحثي.

منهج البحث وإجراءاته: سلكت في كتابة هذا البحث: المنهج الاستقرائيّ، التَّحليليّ، الاستنباطيّ؛ **وفق ما يلي:**

١. استقراء النصوص القرآنية المتعلقة بعناصر البحث، والقيام بتحليلها واستخراج الدلالات منها على تلك العناصر.

٢. بيان مفهوم بناء الإنسان وأهميته في ضوء هدايات القرآن، وثمرة العناية به.

٣. بيان أركان بناء الإنسان في ضوء هدايات القرآن، وكيفية دلالة الآيات على ذلك.

٤. الرَّبط بين هذه الأركان وبين الضَّروريَّات الخمس[١]؛ حيث إنَّها مستنبطة من هدايات القرآن كذلك.

(١) وهذا الرَّبط مما تفرَّد به هذا البحث، ولم أقف عليه عند واحدٍ ممن كتب في هذا الموضوع؛ وإنَّما لم أُشِرْ إليه في الدراسات السَّابقة؛ لكونه ليس مضمَّناً في عنوان البحث.

٥. الاعتماد في كتابة الآيات على الرسم العثماني؛ فأكتب الآية متبوعةً باسم السورة، ورقم الآية، بين معكوفين، هكذا [ ].

٦. توخّي أحاديث الصحيحين في الاستدلال، وإذا كان الحديث عند غيرهما؛ خرَّجته مع بيان أقوال أهل النَّقد فيه.

٧. ترك الترجمة للأعلام الواردة أسماؤهم في ثنايا البحث طلباً للاختصار، والاكتفاء بالإشارة إلى تواريخ وفياتهم.

٨. تذييل البحث بفهرس للمصادر والمراجع.

خطة البحث:

يتكون هذا البحث من:مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، ثم فهرس المصادر.

المقدمة، وفيها: أهمية الموضوع وأسباب اختياره، ومشكلة البحث وأسئلته، ثم أهدافه، فحدوده، والدراسات السابقة، ومنهج البحث وإجراءاته، وخطة البحث.

التمهيد: مفهوم بناء الإنسان وأهميته في ضوء هدايات القرآن، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مفهوم بناء الإنسان لغةً واصطلاحاً.

المطلب الثاني: أهمية بناء الإنسان في ضوء هدايات القرآن.

المبحث الأول: أركان بناء الإنسان في ضوء هدايات القرآن، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: البناء الرُّوحيّ.

المطلب الثاني: البناء الفكريّ.

المطلب الثالث: البناء الجسديّ.

المبحث الثاني: مجالات بناء الإنسان في ضوء هدايات القرآن الواردة في سورة الحجرات، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: تحقيق الإيمان.

المطلب الثاني: تعظيم أوامر الله ورسوله ﷺ.

المطلب الثالث: التثبت من صحة الأخبار.

المطلب الرابع: التقوى مقياس التفاضل.

الخاتمة، وفيها: أهم النتائج مع التوصيات.

فهرس المصادر والمراجع.

التمهيد:

مفهوم بناء الإنسان وأهميته في ضوء هدايات القرآن: وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مفهوم بناء الإنسان لغةً واصطلاحاً:

البناء في اللُّغة: مشتقٌّ من البَنْي، وهو: نقيض الهدم، ويقال منه: بنى البَنَّاءُ البِناءَ بَنْياً وبِنَاءً وبِنًى -مَقْصُورٌ- وبُنْيَاناً وبِنْيَةً وبِنَايَةً، ويستعمل البناء أصلاً في المحسوسات؛ فيقال: بنَى المنزل؛ إذا أقام جدارَه ونحوَه،

ويستعمل مجازاً في معانٍ تدور حول التَّأسيس والتنمية؛ فيقال: بَنَى مَجْدَهُ وبَنَى الرَّجُلَ، أي: اصطنعه، قال الشَّاعر:

يَبْنِي الرِّجَال وَغَيرُهُ يَبْنِي القُرَى ... شتَّانَ بَين قُرىً وَبَين رِجَالِ[1].

ومن ذلك: قوله تعالى في حقّ موسى عليه السلام:

﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ٤١﴾[طه] أي: أجريت عليك صنائعي، ونعمي، وحسنَ عوائدي، وتربيتِي؛ لتكون لنفسي حبيباً مُختصاً[2].

وفي الاصطلاح: لم أقف على من تطرَّق إلى بيان مفهوم "بناء الإنسان" في الاصطلاح فيما بين يديَّ من مصادر.

ومن خلال التعريف اللغويّ السابق للبناء، والاطلاع على ما كتب حول هذا الموضوع؛

فيمكن استخلاص المعنى الاصطلاحيّ لبناء الإنسان، **وحدُّه بأنه:**

تربية الإنسان وإعداده؛ ليكون إنساناً سوياً دينياً ودنيوياً، وذلك بتكوين جوانب البناء الثلاثة فيه، وهي:

الجانب الفِكريّ، والنَّفسيّ، والجسديّ.

---

(١)ينظر: المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده (١٠/ ٤٩٨)، ولسان العرب، لابن منظور (١٤/ ٩٣)، والمعجم الوسيط، لمجموعة مؤلفين (١/ ٧٢).

(٢)تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص: ٥٠٦).

المطلب الثاني: أهمية بناء الإنسان في ضوء هدايات القرآن:

إنَّ بناء الإنسان هو الأساس في أيّ تحول حضاريّ؛ ولذلك فإنَّنا بحاجةٍ ماسَّةٍ إلى بناء الإنسان المسلم بناءً إيمانياً راشداً، يجعله معتزاً بذاته، مجتهداً في تغيير ظروف حياته، عارفاً بظروف الأمم الأخرى، مقتدراً على النُّهوض الحقيقيّ في مواجهة الأخطار التي تتخطَّفُهُ مرةً بعد أخرى.

والإنسان هو محور هذا الكون؛ فقد شَرُفَ بأن خلقه الله ﷻ بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلَّمه الأسماء كلَّها، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض، وكرَّمه وفضَّله على كثير من خلقه تفضيلاً، واصطفى منه الرُّسل، وأنزل عليهم الكتب من أجل هدايته وسعادته،

ومن ثَمَّ كانت سعادةُ الإنسان وسروره هدفَ كلِّ تنميةٍ ورُقيٍّ وتقدُّم، وكان الإنسانُ هو وسيلة ذلك الرُّقيّ والتَّقدُّم ووسيلة كلِّ تنمية؛ ومن هنا فكان لابدَّ من تزكية كلِّ ما يَسْمُو بإنسانية هذا الإنسان، ويرتفع بخصائصه التي يتميز بها عن غيره من المخلوقات(١).

وإنَّ كتاب الله تعالى جامعٌ مانعٌ، صالِحٌ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، كما قال سبحانه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]،

أي: من الأشياء التي فيها منافعُ للمخاطبين وطرائق هدايتهم، وهي أصول الدين وكليَّاته، والإرشاد إلى استعمال القوى البدنية والعقلية في الاستفادة من

---

(١) ومن هنا برزت فكرة ما عرف في العصور المتأخرة لدى العالَم الغربيّ بـ:"التنمية المستدامة"، وقد اتَّفقت جميع تعريفاتها على أنّها (كما في دور الاستثمارات في تحقيق التنمية المستدامة، للإسماعيل، ص: ٤٢-٤٣):"تغيُّرٌ حضاريٌّ يستهدف الارتقاء بالمجتمع، وتوظيف كلّ الموارد -الماديّة والطبيعية والبشرية- في مصلحة الجميع"؛ إلاَّ أنَّ الإسلام قد سبق إلى هذه الفكرة منذ بزوغ فجره في عهد النبوَّة، وهو ما أثبته كثيرٌ من الباحثين، ومن قبلهم القرآن الكريم. ينظر في ذلك: التنمية المستدامة في القرآن الكريم، للدكتورة رحاب مصطفى كامل.

تسخير اللَّهِ كلَّ شيء للإنسان، ومراعاة سننه في خلقه التي يتمُّ بها الكمال المدنِيُّ والعقليّ[1]، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ أمر الجزئيات المتفرعة عن تلك الكليات متروكٌ لاستخراجات العقول واستنباطاتِها.

يقول الغزالِيُّ~ (ت ٥٠٥هـ):"فتفكَّر في القرآن والتمس غرائِبَه، لِتصادف فيه مَجامِع علم الأَوَّلين والآخِرين، وجملةَ أوائله، وإنما التفكر فيه للتوصل من جملته إلى تفصيله، وهو البحر الذي لا شاطئ له"[2].

(١) ينظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (٢/ ٢٩٠)، وتفسير المنار، لرشيد رضا (٧/ ٣٣٠).
(٢)جواهر القرآن، للغزالي (ص: ٤٧).

المبحث الأول: أركان بناء الإنسان في ضوء هدايات القرآن

وفيه ثلاثة مطالب:

اهتمَّت الشريعة الإسلامية اهتماماً بالغاً ببناء الإنسان وتقويم سلوكه وتنظيم حياته؛ حتى إن علماء الأصول استقرؤوا نصوص الكتاب والسُّنَّة واستخرجوا منها خمسة أمورٍ اصطلحوا على تسميتها بـ:"الضَّروريات الخمس"، والمقصود بها: الأمور التي لابدَّ منها في قيام مصالِح الدِّين والدُّنيا، وهي: حفظ الدِّين، والنَّفس، والعقل، والعِرْض، والمال(١).

ولكون أصول هذه الضَّروريات وأدلَّتها منشؤها القرآن؛ فسوف أنطلق من خلالها لبيان أركان بناء الإنسان في المطالب التالية:

المطلب الأول: البناء الرُّوحيّ:

الدِّين هو أهمُّ ضرورةٍ من الضَّروريات الخمس التي أمرت الشريعة بحفظها والعناية بشأنها؛ فإنَّ إقامته هي الغاية العليا التي خلق الله النَّاس لأجلها؛ فقال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات]؛ فالإنسان مأمورٌ بحفظ دينه اعتقاداً وعملاً، ويتمثَّل ذلك في تعلُّم ما يُحقّق به التوحيد، ويدفع به عن نفسه الشُّبَه التي تُورد عليه(٢).

وحفظ الدين يتحقَّق من خلال ثلاثة أمور، وهي: الدَّعوة إليه، ودفع مَنْ عانده أو قصد إفساده، وتلافي النُّقصانَ الطَّارئ في أصله(٣).

ومن خصائص الخطاب الإسلاميّ: أنه يدعو إلى الروحانيَّة التي تُمثّل جوهر الدين ولُبُّه، على أنَّه لا يهمل الجانب الماديّ من الحياة؛ ذلك أنَّ اللَّهَ ﷻ خلق الإنسان مزدوج الطبيعة، فيه قبضةٌ من طين الأرض، ونفخةٌ من روح اللَّهِ ﷻ،

---

(١) ينظر: التحبير شرح التحرير، للمرداوي (٨/ ٣٨٤٦).
(٢) ينظر: مقاصد الشريعة الإسلامية، لابن عاشور (٢/ ١٤٦).
(٣) ينظر: الموافقات، للشاطبي (٤/ ٣٤٧).

وهذه النفخة الرَّبانيَّة هي التي ميَّزته عن سائر الحيوانات، وجعلته أهلاً لأن يأمر اللَّهُ الملائكة بالسجود له تكريماً:﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾[ص].

فإذا عُني الإنسان بعنصره الرُّوحيّ؛ سَما وارتقى حتى يلتحق بأفق الملائكة، وإذا عاش أسيراً وخادماً لعنصره الطينيّ؛ هبط إلى الأرض وأخلد إليها؛ فينزل إلى حضيض الأنعام، وربما صار أضلَّ منها وأسوأ، كما قال تعالى:﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان]؛ ولهذا نجد أنَّ أوامر القرآن الكريم ونواهيه اتَّجهت لتهذيب الجسد والرُّوح وإثرائهما معاً[1].

فالإمكان الحضاريّ الذي تمتلكه الأمة الإسلاميَّة، والذي يُؤَهلها للقيام بالدَّور المتميِّز الرَّائد في إلحاق الرَّحمة بالعالمين هو الطَّاقة الرُّوحية المتجدِّدة المختزنة في الإيمان، التي تغذّيها التَّعاليم والعبادات الإسلامية، والإقبال المتزايد على الإسلام من مواقع حضارية شتَّى، ومستويات ثقافية وعلمية متعدِّدة.

ولذا؛ فإنَّ تربية الضَّمير من أخطر المهام التي يتعلَّق بِها مصيرُ الإنسان، ويتوقَّف عليها ضمان سعادة الفرد وتماسك المجتمع، ومن الضَّروريّ: أن يُوضَعَ لها من القواعد والأسس ما يتناسب مع دِقَّة مهمتها وجلال رسالتها؛ لأنَّ أيَّ انحرافٍ في المنطق سيؤول في النهاية إلى الضياع والهلاك.

ويؤكد الواقع: أنه ليس لأيّ عاملٍ من عوامل الحركات الإنسانية –مهما بلغ من الدِقَّة والتَّنظيم والإحكام– أثرٌ أقوى وأبلغ وأشدُّ فاعليةً في توجيه البشر من الإيمان.إنَّ الإيمان يُنشِئُ في الإنسان ضميراً واحداً لا يعتريه ضعفٌ أو انهزام، ولا يتبدَّل وفق تبدُّلات الزَّمان والمكان، ولا يتكيَّف بحسب البيئة والنُّظم، ولا يتعطَّل تحت ضغط الأهواء والشَّهوات، إنَّه في يقظةٍ دائمة وتنبُّهٍ مستمر، يرصد

(١)ينظر: نحو تجديد الخطاب الديني، للكرواني (ص: ٢٥١).

نوازع الشَّرّ، ويحذر خداع النَّفس، ويُبيّنُ حقيقة الهوى، ويَرْقُبُ نزغات الشيطان(١). ولَمَّا كان بين العقيدة والسُّلوك أوثقُ ارتباطٍ وأعمقُهُ وأقواه؛ فإنَّ الشريعة الإسلاميَّة بترسيخها العقيدة في النَفس الإنسانية إنَّما تُقيمُ حجر الزَّاوية في التَّطهير النَّفسيّ والرُّوحيّ من دنس الأهواء ونزغات الشيطان، وتُنقِّي الضمير من شوائب الانحراف والفساد، وبذلك تسمو بهذه النَّفس إلى حبِّ الفضائل وبغض الرذائل، وما من شكّ أن الارتقاء بالنَّفس عن المستوى الماديّ القاصر المحدود يترك أطيب الثَّمرات في السُّلوك، ويُتِيحُ للإنسان أن يحيى حياةً كريمة طيبة، يتحقَّقُ فيه موعود اللَّهِ ﷻ الذي جاء في قوله:﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾[النحل: ٩٧](٢).

المطلب الثاني: البناء الفكريّ:

من الضَّروريات الخمس التي جاءت الشريعة بالأمر بحفظها والعناية بِها: العقل؛ فهو آلة التفكُّر والتعقُّل والتدبُّر الذي أمر الله ﷻ بها عباده في غير ما موطن في القرآن الكريم. والعقل مناط التَّكليف، وقد اختصَّ الله به خلقه من الآدميين، يقول الرازي~ (ت ٦٠٦هـ):" النَّفس الإنسانية مختصة بقوة أخرى، وهي القوة العاقلة المدركة لحقائق الأشياء كما هي، وهي التي يتجلَّى فيها نور معرفة الله تعالى، ويُشرِقُ فيها ضوء كبريائه"(٣).

وقد دلَّت هدايات القرآن الكريم على أنَّ البناء الفكريّ للعقل يتمُّ من خلال عناصر عديدة، من أهمها العنصران التاليان:

العنصرالأول: تحريره من التعطُّل: فالقرآن الكريم جاء بتحرير العقل من سلطان الخرافة والوهم، والجمود والتقليد، وغيرها من الأدناس التي كان يتَّصف

(١)ينظر: المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية، للخطيب (ص: ٢٠٢).
(٢)ينظر: لمحات في الثقافة الإسلامية، للخطيب (ص: ٢٢٥).
(٣) مفاتيح الغيب، للرازي (٢١/ ٣٧٢).

بِها أهل الجاهلية؛ فالمنهج الإسلاميُّ ليس فيه أوهامٌ وأسرارٌ وخرافاتٌ تصطدم مع العقل السَّليم والمنطق الصَّحيح، بل لقد جعل هذا المنهج الربانيُّ العقلَ الإنسانيَّ هادياً إلى الحقّ، وأمر بالاحتكام إليه في حقائقِ الوجود، وجعَلَه مناطَ الفصل في حسم الجدال بين الملحدين والمؤمنين، حول أيِّ قضيةٍ يثور النّزاع فيها بين الشكّ واليقين(١).

قال تعالى في الحثِّ على التَّفكير والثَّناء عليه:﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾[يونس]، وقال ﷻ في إعلاء شأن العقل والدَّعوة إلى إعماله في فهم آيات اللَّهِ، وإدراك دلائل الهداية في الكون والحياة:﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾[البقرة]، ويقرِّرُ هذا المنهج أنَّ الذي يُعْمِلُ عقله فيعلم الحقّ ويُوقِنُ به، هو الإنسان السَّويُّ البصير، وأن الجاهل الذي يُعطِّل عقله فلا يعلم ولا يهتدي، هو الأعمى المطموس البصيرة، المشلول الإدارك، كما قال ﷻ:﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ (٢) ﴾[الرعد: ١٩](٣)، ففيه:"تعريضٌ بالمشركين، بأنَّهم لا عقولَ لهم؛ إذ انتفت عنهم فائدةُ عقولهم"(٤).

العنصر الثاني: الحثُّ على العلم: يُعدُّ العلمُ أحدَ أشهر النَّشاطات الإنسانية؛ فقد خلق الله الإنسان بأعضاءٍ مختلفة، ويُحقِّق الإنسان بكل عضوٍ منها وظيفةً

(١)قال شيخ الإسلام~:"المرجع في القضايا الفِطْرِيَّة الضَّرورية إلى: أهل الفِطَر السَّليمة، التي لم تتغيَّر فِطْرَتُهم بالاعتقادات الموروثة والأهواء". درء تعارض العقل والنقل (٦/ ١٤).

(٢)اللُّبُّ: العقل الخالص من الشَّوائب، وسُمِّي بذلك لكونه خالص ما في الإنسان من معانيه، كاللُّبَابِ واللُّبِّ من الشيء، وقيل: هو ما زكى من العقل؛ ولهذا علَّق اللَّه تعالى الأحكام التي لا يدركها إلاَّ العقول الزَّكيَّة بأولي الألباب، نحو قوله:﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾[البقرة]. المفردات في غريب القرآن، للأصفهاني (ص: ٧٣٣).

(٣)ينظر: لمحات في الثقافة الإسلامية، للخطيب (ص: ٢١٤-٢١٧)، وبناء الإنسان وفق رؤية إسلامية، للشرقي (ص: ٢٤٧).

(٤)التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٣/ ١٢٣).

معينة؛ وهناك أعضاء خُلِقت للتَّعلم والمعرفة فجاء معها العلم وأصبح فعالية لا تنفك عن الإنسان، وهذه الأعضاء هي الأذن والعين والقلب، قال تعالى:﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾[النحل][(١)]،

فخصَّ هذه الأعضاء الثلاثة لشرفها وفضلها، ولأنَّها مفتاحٌ لكلِّ علم؛ فلا يصل للعبد علمٌ إلا من أحد هذه الأبواب الثلاثة[(٢)]؛ "من أجل هذا فلا يُتصوَّر في ظلِّ منهج الإسلام أيُّ ضربٍ من ضروب النّزاع بين الدِّين والفكر أو العلم، كمثل ما عرفت أوروبا من نزاعٍ طويل مريرٍ بين العلماء وبين رجال الكنيسة، ذلك النّزاع الذي انتهى في بعض أطواره إلى سيطرة نزعة الشكّ، ثم تفاقمت هذه النّزعة حتى انتهت في بعض الحالات إلى هجر الدين أو الإلحاد"[(٣)].

ولقد دعا القرآن الكريم الضَّالين المكذبين من المشركين وأهل الكتاب إلى أن يأتوا ببرهان على ما يزعمون إن كانوا صادقين؛ قال تعالى:﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٦٤﴾ [النمل]، ويعلي المنهجُ الإسلاميُّ من قدر العلماء الذين يجعلون علمهم دليلاً إلى عمق الهداية في قلوبهم، وقوة خشيتهم لربهم؛ قال تعالى:﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ[(٤)]﴾[المجادلة: ١١][(٥)].

وفي الجملة فإنَّ المتتبع لنصوص القرآن يجده قد حثَّ على العلم ويسَّر كلَّ

(١)ينظر: النظريات العلمية الحديثة، للأسمري (١/ ٢٩).
(٢)تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص: ٤٤٥).
(٣)لمحات في الثقافة الإسلامية، للخطيب (ص: ٢١٩).
(٤)فائدة تنكيرُ ٱ: للإشارة إلى أنواعها، من درجات الدُّنيا، ودرجات الآخرة. ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٨/ ٤٠).
(٥)ينظر: لمحات في الثقافة الإسلامية، للخطيب (ص: ٢٢٠).

طريقٍ موصلةٍ إليه، وفي المقابل فقد سدَّ كلَّ طريق تكون سبباً في تعطيل الوصول إليه.

المطلب الثالث: البناء الجسديّ:

في بيان تكريم الله ﷻ للنَّفس البشرية على سائر المخلوقات يقول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾[الإسراء]،

قال الرَّازي~ (ت ٦٠٦هـ):"اعلم أنَّ الإنسان جوهرٌ مركب من النفس والبدن، فالنَّفس الإنسانية أشرف النُّفوس الموجودة في العالم السُّفليّ، وبدنه أشرف الأجسام الموجودة في العالم السُّفليّ"(١).

ويتمثَّل حفظ النَّفس في إقامة أصلها بشرعيَّة التَّناسل، وحفظ وجودها وبقائها بنيلها ما يصلحها، وتجنيبها ما يضرها ويفسدها(٢)؛ وهنا يأتي طلب عمارة الأرض بالأمر الشرعيّ؛ كما في قوله تعالى:﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[هود: ٦١]، ومعنى الآية:"أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه"(٣)؛ ففيه: الدَّلالة على وجوب عمارة الأرض بالزراعة، والغراس، والأبنية(٤).

ولم يقف أمر حفظ النَّفس على طلب تجنيبها ما يضرُّها من المحسوسات فحسب، بل تعدَّاه ليشمل ما يضرُّها ولو كان من المعنويَّات، وهنا تأتي الضَّرورة الأخرى من الضَّروريَّات الخمس، وهي: حفظ العرض(٥).والعِرضُ مُعظَّمٌ في الشريعة الإسلامية؛ لذا فقد صانته وجعلته موضع تقدير واحترام،

(١) مفاتيح الغيب، للرازي (٢١/ ٣٧٢).
(٢) ينظر: الموافقات، للشاطبي (٤/ ٣٨٤).
(٣) البحر المحيط في التفسير، لأبي حيَّان (٦/ ١٧٥).
(٤) ينظر: أحكام القرآن، للجصاص (٤/ ٣٧٨).
(٥)العرض هو: موضعُ المدح والذَّم من الإنسان، وهي أحواله التي يرتفع بها أو يسقط، سواءٌ كانت في نفسه، أو سَلَفِهِ، أو مَنْ يلزمه أمرُه. ينظر: لسان العرب، لابن منظور (٧/ ١٧١).

محفوظاً من أن يُنالَ منه بوجهٍ غير ذي حقّ؛ وفي ذلك يقول النَّبِيُّ ﷺ:«إنَّ دِمَاءَكم، وأموالكم، وأعْرَاضَكُم، عليكم حرامٌ»(١)، يقول الطوفِيُّ~ (ت ٧١٦هـ):"وجعل هذه الثلاثةَ كُلَّ المسلم وحقيقَتَهُ؛ لشدة اضطراره إليها: أما الدَّمُ فلأن به حياتَهُ، والمال مادَّة الدَّم؛ فهو مادة الحياة، والعِرْضُ به قيام صورته المعنوية؛ واقتصر على هذه الثلاثة لأنَّ ما سواها فرعٌ عليها وراجعٌ إليها؛ لأنه إذا قامت الصورة البدنية والمعنوية؛ فلا حاجة إلى غير ذلك"(٢).

وتبيَّن مِمَّا تقدَّم: أنَّ عناية شريعتنا الإسلامية بالإنسان لم تقتصر على بناء الجانب الرُّوحيّ منه فحسب –كما يُصوِّره ويتصوَّره بعض المخطئين– بل لقد شملت كذلك بناء الجانب الجسديّ.

والبناء الجسديّ يتكوَّن من عنصرين أساسيين، هما: بناء الصِحَّة البدنيَّة وبناء الصِحَّة النَّفسيَّة؛ فأمَّا بناء الصِحَّة النَّفسيَّة فتقدم الحديث عن أصوله في المطلب السابق، ويأتي الحديث هنا على بناء الصِحَّة البدنيَّة، ويتمثَّل في العناصر التالية(٣):

أولاً: الالتزام بقواعد الصِحَّة العامَّة، وهنا يأتي قوله تعالى:﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ﴾ [الأعراف: ٣١]، يقول ابن القيم~ (ت ٧٥٢هـ):"فأرشد عباده إلى إدخال ما يُقيمُ البدن من الطَّعام والشراب عِوضَ ما تَحلَّل منه، وأن يكون بقدر ما ينتفع به البدن في الكميَّة والكيفية، فمتى جاوز ذلك كان إسرافاً، وكلاهما مانعٌ من الصِحَّة جالبٌ للمرض، أعني: عدم الأكل والشُّرب،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب (١/ ٣٣) برقم (١٠٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (٣/ ١٣٠٦) برقم (١٦٧٩).

(٢) التعيين في شرح الأربعين، للطُّوفِيّ (١/ ٣٠٥).

(٣)هذه العناصر ليست من باب الحصر، وإنَّما هي من باب الإشارة والتَّمثيل، وقد زخرت السنة النَّبوية بالكثير من هذا النَّوع، وينظر في ذلك (فصلٌ: هديُهُ ﷺ في حفظ الصِحَّة) وما بعده، من كتاب زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم (٤/ ١٩٥).

أو الإسراف فيه؛ فحفظ الصِحَّة كلُّه في هاتين الكلمتين الإلهيتين"(١).

ثانياً: القناعة بأن الفرائض والسُّنن الإسلامية تساعد على صِحَّة البدن، وقد أشار الله ﷻ إلى ذلك في إخباره عمَّا قاله هودٌ عليه السلام لقومه؛ فقال:﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢] قال الحسن البصري-(ت ١١٠هـ):"إنَّ الرَّجل ليعمل الحسنة؛ فيكون نوراً في قلبه، وقوَّةً في بدنه، وإنَّ الرَّجل ليعملَ السَّيئة؛ فتكون ظلمةً في قلبه، وَوَهَناً في بدنه"(٢).

ثالثاً: التَّعود على ممارسة الرياضة البدنية وفق الضوابط الشرعية،

قال الله تعالى:﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾[الحشر: ٧]، وإنَّ مما حثَّ عليه النَّبِيُّ ﷺ وشدَّد عليه: العناية بستر العورة؛ ففي حديث الْمِسْوَرِ بنِ مَخْرَمَةَ رضي الله عنه (ت ٦٤هـ) قال: أقبلت بِحجرٍ أحمله -ثقيل- وعليَّ إزارٌ خفيف، قال: فانْحلَّ إزاري ومعي الحجر، لم أستطع أن أضعه حتى بلغت به إلى موضعه؛ فقال رسول الله ﷺ:«ارْجِعْ إِلَى ثَوبِكَ فَخُذْهُ، وَلاَ تَمشُوا عُرَاةً»(٣)؛ فكشف العورة مخالف للطبيعة والمروءة، ومخالف للحياء ومكارم الأخلاق، وقد جاءت الشَّريعة الإسلامية ترسم للبشرية الْمُثُلَ العُليا، والطريق القويم للحياة الدُّنيوية والأخروية(٤).

وخامس الضَّروريات الخمس التي جاءت الشريعة بحفظها، وبناء الإنسان بها: حفظ المال، وقد امتنَّ الله ﷻ على عباده بأن خلق لهم ما يتموَّلون به فقال:﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[البقرة: ٢٩]، أي: جميع

(١)زاد المعاد، لابن القيم (٤/ ١٩٥).

(٢)التوبة، لابن أبي الدنيا (ص: ١٤٢).

(٣)أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب الاعتناء بحفظ العورة (١/ ٢٦٨) برقم (٣٤١).

(٤)ينظر: فتح المنعم شرح صحيح مسلم، للموسى (٢/ ٣٦٠).

المنافع، ما يتَّصل بالحيوان، والنبات، والمعادن، والجبال؛ وما يتَّصل بضروب الحِرَف، والأمور التي استنبطها العقلاء[١].

وحفظ المال يتحقق من ثلاثة وجوهٍ، وهي: اكتسابه وإحرازه، ثم تنميته وتكثيره، وبعدهما المحافظة عليه من العوارض التي تُفسِده أو تُتْلِفُه[٢]؛ وإذا تَحَقَّق الحفظ في المال؛ تَحَقَّقت الاستعانة به في إقامة باقي الضَّروريات الأربعة[٣]؛ ومن ثَمَّ يتحقَّقُ بناء الإنسان على ما رسمته شريعة الإسلام.

(١) ينظر: مفاتيح الغيب، للرازي (٢/ ٣٧٩).
(٢) ينظر: الموافقات، للشاطبي (٤/ ٣٤٨).
(٣) ينظر: مقاصد الشريعة، لابن عاشور (٢/ ١٤٦).

المبحث الثاني: مجالات بناء الإنسان في ضوء هدايات القرآن الواردة في سورة الحجرات

وفيه أربعة مطالب:

بعد أن استظهرنا الأركان التي يعتمد عليها بناء الإنسان في المبحث السابق، وتبيَّنا دلالات هدايات القرآن عليها، نأتي في هذا المبحث لإظهار المجالات –في سورة الحجرات– التي باجتماعها تترسَّم تلك الأركان، وذلك من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول: تحقيق الإيمان:

تحقيق الإيمان ينبعث من تحقيق التوحيد، ويراد به: "معرفته، والاطّلاع على حقيقته، والقيام بها علماً وعملاً، وحقيقة ذلك هو انجذاب الرُّوح إلى الله محبة وخوفاً، وإنابة وتوكلاً، ودعاء وإخلاصاً، وإجلالاً وهيبة، وتعظيماً وعبادة"(١).

وفيما يتعلَّق بتحقيق الإيمان يقول الله ﷻ في سورة الحجرات:﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٤]، ففي هذه الآية: يُخبِرُ تعالى عن مقالة الأعراب، الذين دخلوا في الإسلام في عهد رسول الله ﷺ دخولاً من غير بصيرة، ولا قيامٍ بما يجب ويقتضيه الإيمان، أنَّهم ادَّعوا –مع هذا– إيماناً كاملاً مستوفياً لجميع أموره؛ فأمر الله رسوله ﷺ بالردِّ عليهم(٢).

وفي هذه الآية دلالات مهمة حول البناء الرُّوحيّ الإنسانِيّ، ومنها:

أولاً: أنَّ اجتماع الإيمان وتمامه في القلب لا يكون جملةً واحدة، وهذا تماماً كما قيل في معنى التربية بأنَّها:"إنشاءُ الشَّيء حالاً فحالاً إلى حدِّ التَّمام"(٣)؛

(١) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، لآل الشيخ (ص: ٧٤).
(٢)ينظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (ص: ٨٠٢).
(٣)التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي (ص: ٩٥).

فهكذا التربية الإيمانية تستدعي العمل المتواصل الذي يوصل صاحبه إلى حدّ التَّمام أو يقاربه.وفي هذا المعنى ورد قوله ﷺ:«سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاعْلَمُوا أَنْ لَنْ يُدْخِلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الجَنَّةَ، وَأَنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ»(١)؛ يقول النَّوويُّ-(ت ٦٧٦هـ):"وفيه:الحثُّ على المداومة على العمل، وأنَّ قليلَهُ الدَّائمُ خيرٌ من كثيرٍ ينقطع، وإنَّما كان القليلُ الدَّائم خيراً من الكثير المنقطع؛ لأن بدوام القليل تدوم الطَّاعة والذِّكر والمراقبة والنيَّة والإخلاص والإقبال على الخالق سبحانه وتعالى، ويُثمِرُ القليل الدَّائم بحيث يزيد على الكثير المنقطع أضعافاً كثيرة"(٢).

ثانياً: أنَّ طهارة الظَّاهر لا تؤثر ولا تنفع إلا بطهارة الباطن؛ فنقاء الجسد غيرُ مُجدٍ مالم يقترن به نقاء الرُّوح؛ "إذ الإيمان هو التَّصديق، المقارن للثِّقة، وطمأنينة القلب"(٣).

ويقول ابن عاشور-(١٣٩٦هـ):"كانوا في شكٍّ لم يتمكَّن الإيمان منهم؛ فأنبأهم اللَّهُ بما في قلوبهم، وأعلمهم أن الإيمان هو التَّصديق بالقلب لا بمجرد اللِّسان؛ لقصد أن يُخلِصُوا إيمانَهم ويتمكَّنوا منه ...، لا يُتعدُّ بالإسلام إلا إذا قارنه الإيمان، فلا يغني أحدهما بدون الآخر؛ فالإيمان بدون إسلامٍ عنادٌ، والإسلام بدون إيمان نفاقٌ، ويجمعهما طاعة الله ورسوله ﷺ "(٤).

وتبيَّن بما تقدم: تأثير تحقيق الإيمان على البناء الرُّوحيّ للإنسان، وأنَّه مالم يوجد هذا التَّحقيق؛ فلن يكتمل ذاك البناء على الوجه الرَّصين.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل (٨/ ٩٨) برقم (٦٤٦٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره (١/ ٥٤١) برقم (٧٨٢).

(٢)المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووي (٦/ ٧١).

(٣)إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٨/ ١٢٣).

(٤)التحرير والتنوير، بن عاشور (٢٦/ ٢٦٤).

المطلب الثاني: تعظيم أوامر الله ورسوله ﷺ.

يقول اللَّهُ ﷻ:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [الحجرات: ١]، قال ابن كثير~(ت ٧٤٤هـ):"أي: لا تُسرِعُوا في الأشياء بين يديه، أي: قبله، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور، حتَّى يدخل في عموم هذا الأدب الشرعي حديث معاذ، إذ قال له النَّبِيُّ ﷺ حين بعثه إلى اليمن:«بِمَ تَحْكُمُ؟» قال: بكتاب الله، قال:«فَإِنْ لَمْ تَجِدْ؟» قال: بسُنَّة رسول الله، قال:«فَإِنْ لَمْ تَجِدْ؟» قال: أجتهد رأيي[1] ... فالغرض منه: أنه أخَّر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعدَ الكتابِ والسُّنَّة، ولو قدَّمه قبل البحث عنهما؛ لكان من باب التَّقديم بين يدي الله ورسوله"[2].

إنَّ تعظيم أوامر الله ورسوله ﷺ له الأثر الكبير في البناء الرُّوحيّ الإنسانِيّ، على الأفراد والمجتمعات؛ ففي حين ينعم الفرد بالسَّعادة الرُّوحية والنَّفسية التي وعده الله إيَّاها في قوله:﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ﴾[النحل: ٩٧]، نجد المجتمع قد وُعِد بوعدٍ مثله، وهو الكائن في قوله تعالى:﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[الأعراف: ٩٦]، ففي هذه الآية:"بيان أن الإيمان بما دعا الله إليه، والتَّقوى في العمل بشرعه فعلاً وتركاً، سببٌ اجتماعيٌّ طبيعيٌّ لِسَعَةِ بركات السَّماء والأرض وخيراتِها على الأمَّة"[3].

والصحابة الكرام ﷺ أشدُّ الناس تعظيماً لأوامر الله وأوامر رسوله ﷺ، وأعلاهم كعباً في ذلك صِدِّيقُ الأمة ﷺ (ت: ١٣هـ)، ومِمَّا أثر عنه في ذلك: ما جاء

---

(١)أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الأحكام، باب ما جاء في القاضي كيف يقضي (٣/ ٦٠٨) برقم (١٣٢٧)، وقال:"ليس إسنادُهُ عندي بمتَّصل".

(٢)تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٣٦٤).

(٣)تفسير المنار، لرشيد رضا (٩/ ٤٨٠).

عن أبي هريرة ﷺ (ت: ٥٧هـ) أنه قال: واللَّهِ الذي لا إله إلا هو لولا أبو بكر ما عُبِدَ اللَّهُ؛ لَمَّا توفِيَ رسولُ اللَّهِ ارتدت العرب، وكثرت أطماع النَّاسُ في المدينة وأرادته الصحابة على إمساكه بجيش أسامة، والكفِّ عمَّن منع الزَّكاة؛ فقال: والله لو لم يتبعني أحدٌ لجاهدتهم بنفسي حتى يُعزَّ اللَّهُ دينه أو تنفرد سالفتي(١)؛ فاشتدَّ عزمُ الصحابة حينَئِذٍ، وقمع الله أهلَ المطامع عمَّا أرادوه(٢).

فتأمَّل كيف لو تأخَّر الصديق ﷺ عمَّا عزم عليه ماذا كان سيَحُلُّ بالإسلام وأهله؟

فظهر بما تقدَّم: أنَّ تعظيم أوامر الله ورسوله ﷺ ليس فيه تحقيقٌ للبناء الرُّوحيّ الإنسانِيّ فحسب، بل فيه كذلك تحقيقٌ للبناء الفكريّ الذي يسعى -كما تقدم- إلى تحرير العقل من التَّعطُّل، وحثه على العلم والعمل به، إضافةً إلى البناء الجسديّ المتمثل في نيله ما يصلحُهُ وتجنيبه ما يضرُّهُ -كما تقدم-.

المطلب الثالث: التثبت من الأخبار:

يقول اللَّهُ تبارك وتعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [الحجرات: ٦]،

يقول ابن عاشور-:"وإنَّما كان الفاسق مُعرَّضاً خبرُهُ للرِّيبة والاختلاق؛ لأنَّ الفاسق ضعيف الوازع الدينِيّ في نفسه، وضعف الوازع يُجرِّؤهُ على الاستخفاف بالمحظور وبما يخبر به في شهادةٍ أو خبر يترتَّب عليهما إضرارٌ بالغير أو بالصالح العام، ويُقوِّي جُرْأَتَه على ذلك دوماً إذا لم يتب ويندم على ما صدر منه ويُقْلِع عن مثله"(٣).

وتخصيص الفاسق؛ لأنه مَظِنَّةُ الكذب، والأخذ بخبر الصالح جزءٌ من منهج

(١) السَّالِفةُ:"صفحة العنق، وكنَّى بانفرادها عن الموت؛ لأنَّها لا تنفرد عمَّا يليها إلا به". النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٤٢٦).

(٢)ينظر: شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٣/ ٣٩٢).

(٣)التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٦/ ٢٣١).

التَّثبت؛ لأنه أحد مصادره، أما الشكُّ المطلق في جميع المصادر وفي جميع الأخبار فمخالفٌ للأصل المفروض بين المؤمنين من الثقة، ومُعطِّل لسير الحياة، فالإسلام يضع الضَّمانات لصيانتها لا لتعطيلها، وهذا نموذجٌ من الإطلاق والاستثناء في مصادر الأخبار. وإذا كان البناء الفكريّ الذي جاءت به الشريعة الإسلامية يسعى إلى تحرير العقول من التعطُّل، والنَّأي بها عن سلطان الخرافة والوهم والتَّقليد، ويسعى كذلك إلى حثِّها إلى التَّخلَّق بالعلم والتلبس به -كما تقدم تحريره-، فإنَّ الأخبار الهدَّامة المكذوبة تسعى إلى تحقيق عكس ذلك كُلِّه. وتكمن خطورة الكذب في أنَّ مرتكبه قد ينسف بخبر واحدٍ مكذوبٍ أو منقوص أعمالاً جليلة ومكانةً رفيعة، وإنَّ الكاذب يرمي بالكِذْبة لا يلقي لها بالاً فتبلغ من خطورتِها وضررها آفاقاً بعيدة، فقد يسقط الرجل عند النَّاس من الثُّريا إلى الثَّرى بسبب كلمةٍ واحدةٍ ملفَّقة.

إن دعوة المنهج الإسلاميّ إلى إعمال العقل بتوجيهه الدَّائم إلى التَّدبُّر والتَّفكُّر في كلِّ جوانب الكون والحياة؛ هو منهج العلم في أصدق أصوله، وأرسخ قواعده، فهو المنهج الذي يرفع من شأن البحث العلمي الذي يُوصِلُ إلى معرفة الحق، ويؤدّي إلى الإذعان له؛ لِما يقوم عليه العلم الصَّحيح من الحجة القوية، والبرهان المقنع، وليس يُقبَلُ في هذا المنهج الاعتمادُ على الظنِّ والتَّخمين طريقًا للوصول إلى المعرفة، وإدراك الحقائق(١).

"فالتَّثبت من كلِّ خبرٍ ومن كلِّ ظاهرة ومن كلِّ حركة وتبيُّنها قبل الحكم عليها، هو أمر الله الصَّريح في القرآن الكريم، ومنهج الإسلام الدَّقيق، ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج؛ لم يبق مجالٌ للوهم والخرافة في عالم العقيدة والمعاملات، ولم يبق مجال للظنِّ والشُّبهة في عالم الحكم والقضاء والمعاملات"(٢)

(١) ينظر: لمحات في الثقافة الإسلامية، للخطيب (ص: ٢٢٠).

(٢)تأملات في موضوعات سورة الحجرات، للعواجي (ص: ١٢٠).

فالبناء الفكريّ الذي يخرج لنا الإنسان السَّويَّ البصير، البعيد عن شلل الإدراك وطمس البصيرة، هذا البناء مضمونٌ لمن تأمَّل هدايات القرآن، وتفهَّم معانيَها، وعمل بمقتضياتِها.

المطلب الرابع: التقوى مقياس التفاضل:

المجتمع الإسلاميُّ منفتح لكلِّ البشرية، لا يفرِّق بين النَّاس، ولا يجعل امتيازاً لطبقةٍ على أخرى إلا بالتَّقوى والعمل الصالح، ولقد أراد الله ﷻ أن يكون البشر كلُّهم أسرةً واحدة، محكومين بنظامٍ واحد، مندفعين لغايةٍ واحدة(١)؛ قال الله ﷻ:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٣]، ففي هذا الخطاب الرَّبانِيّ: نَهيٌ عن سببٍ من أسباب الشقاق التي تفتك بالمجتمع وتبعث فيه الفرقة، وهو الافتخار بالأنساب والاعتداد بالأحساب؛ فنهى الله ﷻ عن ذلك وبيَّن وجه الحقّ فيه بأن ذكَّر النَّاس بأنَّ أصل البشرية واحدٌ؛ فلا يفخر أحدٌ على أحد بما هم فيه مشتركون(٢).

وتحقيقاً لهذا الأصل الذي رسَمه القرآن الكريم؛ فقد وقف النَّبيُّ ﷺ في الموسم الأكبر ليخاطب النَّاس جميعاً بقوله :«يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلا لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلاَّ بِالتَّقْوَى»(٣).

وفي هذا الحديث دلالةٌ على أنَّ صياغة المنهج الإسلاميّ لبناء المجتمع الإنسانِيّ تنطلق من حقيقتين أصيلتين راسختين، تستنير بهديهما كلُّ المسائل والقضايا المتصلة بالمجتمع على أيّ مستوى كان، وفي أيّ زمان ومكان،

(١)ينظر: بناء الإنسان والمجتمع، لحمادة (ص: ٦٥).
(٢)ينظر: التفسير الموضوعي لسورة الحجرات، للبقاعي (ص: ٩١).
(٣)أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٨/ ٤٧٤) برقم (٢٣٤٨٩)، ورجال إسناده رجال الصحيح. ينظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمي (٣/ ٢٦٦).

وهاتان الحقيقتان هما:

١-**وحدة الأصل:** فالبشر جميعاً ينتسبون إلى أبٍ واحد، فإذا اختلفوا جنساً ولوناً ووطناً؛ فلا ينبغي أن يكون ذلك الاختلاف -الذي اقتضته حكمة الله ﷻ لعمارة الأرض بهم- عائقًا عن مشاركتهم الإيجابية في هذه الوظيفة الإنسانية، وهذا هو المعنى الإنسانِيّ الأصيل الذي يُقرّرُهُ منهج الإسلام، وتُغذّيه توجيهاتُهُ وقواعده وأحكامه.

٢-**وحدة العقيدة:** ومحور هذه الحقيقة هو تلك الصِلَّة التي تجعل البشر جميعاً عباداً لله ﷻ، وتؤكّد عقيدة التوحيد: أنَّ رُسل الله ﷻ جاؤوا بدينٍ واحد هو الإسلام، وأمَّا التشريع الذي يُنظّم حياة الجماعة فهو الذي يتطوَّر في الرسالات الإلهية على أيدي الرُّسل، تبعاً لمصلحة البشرية ودرجة نموها وتطور إدراكها(١).

"إن البشرية اليوم بجميع شعوبها وأجناسها وألوانها وأديانها تتقارب وتتشابك وتزداد توحداً يوماً بعد يوم، ولابدَّ لها من قانون واحد واضح يجمع بينها ويؤالف، ويساوي ويعادل، ولا ملاذ لها إلا بالإسلام، وإلا فالحروب مستمرَّة، والفتن متتابعة، والقلاقل لن تهدأ أبداً، ولن يرضى شعبٌ أو جنس بأن يكون أقلَّ من جنس آخر ولو همد(٢) إلى حين.ولهذا فإنَّ الحضارة الإنسانية الواحدة التي ينادون بها، لا تقوم إلا بهذه السُّنَّة، سنة التعاون البشري والتآزر الإنسانِيّ"(٣).

وبهذا يتبيَّن مدى ضمان دستور هذه الشريعة (القرآن الكريم) لبناء الإنسان البناء الصحيح، الذي يتكفَّل ببنائه الرُّوحيّ الذي يهديه لتحقيق عبادة خالقه، وبنائه المعرفِيّ الذي يرفعه بالعلم وينتشله من ظلام الجاهلية والكفر، وبنائه الجسديّ الذي يكفل له التمتُّع والتنعُّم بالصحة البدنية والرَّاحة النَّفسية.

(١)ينظر: لمحات في الثقافة الإسلامية، للخطيب (ص: ٢٣٥-٢٣٨).
(٢)هَمدتِ النَّارُ: خمدت. ينظر: النهاية، لابن الأثير (٥/ ٢٧٣).
(٣)ينظر: بناء الإنسان والمجتمع، لحمادة (ص: ٦٧).

الخاتــمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، نبينا محمد الأمين، وعلى آله وصحبه والتابعين، أما بعد:

ففي ختام هذا البحث أرصد أهمَّ النتائج والتوصيات التي ظهرت لي، وذلك على النحو التالي:

النتائج:

١. مفهوم بناء الإنسان باعتباره مصطلحاً مُرَكَّباً يعني: تربية الإنسان وإعداده؛ ليكون إنساناً سوياً دينياً ودنيوياً، وذلك بتكوين جوانب البناء الثلاثة فيه، وهي: الجانب الفِكريّ، والنَّفسيّ، والجسديّ.

٢. أركان بناء الإنسان ثلاثة، وهي: البناء الرُّوحيّ، والبناء الفكريّ، والبناء الجسديّ.

٣. من مجالات بناء الإنسان في سورة الحجرات: تحقيق الإيمان، وتعظيم أوامر الله ورسوله ﷺ، والتثبت من الأخبار، وأن التَّقوى مقياس التفاضل.

٤. ظهر من خلال هذا البحث: عدم صحَّة ما تُرْمَى به الحضارة الإسلامية من كونِها حضارةً بعيدةً عن تحقيق متطلبَّاتِ الحضارة في الماضي والحاضر والمستقبل.

٥. يستلزم مما تقدم: سبق الشريعة الإسلامية وحضارتُها إلى رسم أسس وقواعد البناء الإنسانِيّ والبناء الحضاريّ.

٦. اشتمل القرآن الكريم (من خلال سورة الحجرات) على نصوصٍ عديدةٍ تضمَّنت أصول وقواعد البناء الإنسانِيّ والبناء الحضاريّ، وهذا نزرٌ يسيرٌ مما تضمَّنته آيات القرآن الكريم من ذلك.

٧. ظهرت العلاقة الوطيدة بين الضَّروريَّات الخمس (المستنبطة أصلاً من هدايات القرآن) وبين أركان بناء الإنسان؛ حيث إنَّ كلاً منها إذا فُقِد؛ لم تَجْرِ مصالِحُ الدُّنيا على استقامة، بل على فسادٍ وفوت حياة.

التوصيات:

يوصي الباحث بتخصيص رسالةٍ علمية تُعنَى بتناول ودراسة موضوع بناء الإنسان في ضوء هدايات القرآن (مفهومه، أركانه، مجالاته) من خلال الضَّروريَّات الخمس التي جاءت الشريعة بالمحافظة عليها والعناية؛ حيث إنَّ هذا البحث لم يتناول منها إلا شيئاً يسيراً يتفق والكمَّ المسموح به في مثل هذه البحوث.

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١. **أحكام القرآن،** الجصّاص، المحقق: القمحاوي، دار إحياء التراث العربي: بيروت، ١٤٠٥هـ.

٢. **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم،** أبو السُّعود العماديّ، دار إحياء التراث العربي: بيروت.

٣. **البحر المحيط في التفسير،** أبو حيان الأندلسي، المحقق: صدقي جميل، دار الفكر: بيروت، ١٤٢٠هـ.

٤. **بناء الإنسان والمجتمع،** فاروق حمادة، دار القلم: دمشق، ط١، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م.

٥. **بناء الإنسان وفق رؤية إسلامية،** خير الدين شرقي، مجلة العلوم الإسلامية والحضارة – المجلد (٨)، العدد (١)، السنة (٢٠٢٣م)، ص٢٤٥- ص٢٦٢.

٦. **التحبير شرح التحرير،** المرداوي، المحقق: الجبرين وآخران، مكتبة الرشد: الرياض، ط١، ١٤٢١هـ.

٧. **التحرير والتنوير،** ابن عاشور، الدار التونسية للنشر: تونس، ١٩٨٤هـ.

٨. **التعيين في شرح الأربعين،** الطُّوفِي، المحقق: أحمد حاج، مؤسسة الريان: بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.

٩. **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)،** محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب: مصر، ١٩٩٠م.

١٠. **تفسير القرآن العظيم،** ابن كثير، المحقق: سامي سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ.

١١. **التفسير الموضوعي لسورة الحجرات**، يحيى البقاعي، مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية المجلد (٣)، العدد (١)، السنة (٢٠١٥م)، ص٧٥- ص٩٩.

١٢. **التنمية المستدامة في القرآن الكريم**، رحاب كامل، مجلة البحوث والدراسات القرآنية – العدد (١٦)، السنة (١٠).

١٣. **التوقيف على مهمات التعاريف**، زين الدين المناوي، عالم الكتب: القاهرة، ط١، ١٤١٠هـ.

١٤. **تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد**، سليمان آل الشيخ، المحقق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي.

١٥. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، السعدي، المحقق: اللويحق، مؤسسة الرسالة: بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.

١٦. **جواهر القرآن**، الغزالِيّ، المحقق: محمد رشيد رضا، دار إحياء العلوم: بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ.

١٧. **درء تعارض العقل والنقل**، ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية: السعودية، ط٢، ١٤١١هـ – ١٩٩١م.

١٨. **دور الاستثمارات في تحقيق التنمية المستدامة (سورية أنموذجاً)**، معتصم إسماعيل، رسالة دكتوراه، جامعة دمشق – كلية الاقتصاد، ٢٠١٥م.

١٩. **زاد المعاد في هدي خير العباد**، ابن القيّم، مؤسسة الرسالة: بيروت، ط٢٧، ١٤١٥هـ.

٢٠. **سنن الترمذي**، الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي: مصر، ط٢، ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م.

٢١. **شرح صحيح البخاري**، ابن بطَّال المالكيّ، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد: الرياض، ط٢، ١٤٢٣هـ.

٢٢. **صحيح البخاري**، البخاري، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.

٢٣. **صحيح مسلم**، مسلم بن الحجاج، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي: بيروت.

٢٤. **فتح المنعم شرح صحيح مسلم**، موسى شاهين لاشين، دار الشروق، ط١، ١٤٢٣هـ.

٢٥. **كتاب التوبة**، ابن أبي الدنيا، تحقيق: مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن: مصر.

٢٦. **لسان العرب**، ابن منظور الإفريقي، دار صادر: بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.

٢٧. **لمحات في الثقافة الإسلامية**، عمر عودة الخطيب، مؤسسة الرسالة، ط١٥، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.

٢٨. **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، الهيثمي، المحقق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي: القاهرة، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.

٢٩. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ابن عطية الأندلسيّ، المحقق: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية: بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

٣٠. **المحكم والمحيط الأعظم**، ابن سيده، المحقق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية: بيروت، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠ م.

٣١. **المسند**، أحمد بن حنبل، المحقق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ.

٣٢. **المعجم الوسيط**، مجموعة مؤلفين، تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة.

٣٣. **مفاتيح الغيب**، الرازيّ، دار إحياء التراث العربي: بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.

٣٤. **المفردات في غريب القرآن**، الراغب الأصفهانِيّ، المحقق: صفوان الداودي، دار القلم: دمشق، ط١، ١٤١٢هـ.

٣٥. **مقاصد الشريعة الإسلامية**، ابن عاشور، المحقق: محمد الحبيب ابن الخوجة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية: قطر، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.

٣٦. **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، النَّوويّ، دار إحياء التراث العربي: بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ.

٣٧. **الموافقات**، الشاطِبِيّ، المحقق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧هـ.

٣٨. **نحو تجديد الخطاب الديني تأسيس البنية النظرية وحق الاختلاف**، سعيد الكروانِيّ، منشورات وزارة الأوقاف، ط١، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.

٣٩. **النظريات العلمية الحديثة، مسيرتها الفكرية وأسلوب الفكر التغريبي العربي في التعامل معها – دراسة نقدية**، حسن الأسمري، مركز التأصيل للدراسات والبحوث: جدة، ط١، ١٤٣٣هـ.

٤٠. **النهاية في غريب الحديث والأثر**، ابن الأثير، تحقيق: طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية: بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.